# رؤية تحليلية لثورة الشباب العربى ضد الهوان

# ثورة جيل عربى مختلف

**كان جيل الأجداد يرتعد من العمدة وشيخ الخفراء ويدعو للوالى بطول العمر والبقاء ، وكان جيل الآباء يهرب فزعا من أى "بذلة ميرى" ويقبل أيدى الحاكم ورأسه وكتفه وربما قدميه ويدعو له بدوام الحكم وتوريثه لأبنائه وأحفاده ، وحين ينصرف من حضرته يلعنه فى سره فإن لم يستطع ففى منامه . واستقرت هذه الصورة فى إدراك أولى الأمر العرب فتعاملوا مع الشعوب العربية على هذا الأساس لسنوات طالت حتى الملل ، بعضهم يكتفى بالترهيب وبعضهم يمزج الترهيب الواسع بقليل من الترغيب ، وسادت قناعة لدى القاصى والدانى بأن الشعوب العربية ليست شعوبا وإنما رعية (مأخوذة من رعى الغنم وليس من الرعاية) ، وليسوا مواطنين وإنما ضيوف ثقلاء على أولى الأمر إن شاءوا أكرموهم وإن شاءوا صرفوهم أو أهانوهم . ومع طول الوقت وتنامى الخوف اكتسبت الشعوب العربية أخلاق العبيد وتنازلوا لحكامهم طوعا أو كرها عن الحرية والكرامة الإنسانية ورضوا بلقمة العيش المغموسة فى المذلة والهوان . واستدعت الذاكرة التحليلية تعرض غالبية الشعوب العربية للاستعمار مرات عديدة من أراذل البشر وبادر المحللون بالقول بأن الشعوب العربية شعوبا قابلة للاستعمار ، وحين تحررت تلك الشعوب من الإستعمار الأجنبى وقعت فى قبضة بعض أبنائها الذين ألغوا إرادتها وسلبوا خيراتها واستبدوا بها فأصبحت تلك الشعوب توصف بأنها "قابلة للإستحمار" .**


بقلم:

**د. محمد المهدى**

استشارى الطب النفسى . رئيس قسم الطب النفسى جامعة الأزهر . فرع دمياط


الآن قد تغير الوضع وظهر جيل جديد لم يفهمه الآباء ولم يفهمه أولى الأمر ، جيل لم يتعود تقبيل أيدى أبيه أو عمه أو جده ، جيل لا يخشى الكاب أو النجمه أو الدبوره ، جيل بدا مستهترا بالضوابط والقوانين فخرج بسيارته يقود بسرعة جنونية ويقطع إشارات المرور ، جيل لا يشرب اللبن مساءا ولا ينام مبكرا ، جيل تمرد على نظام التعليم وعلى القيم السائدة ، جيل دخل على الإنترنت منذ نعومة أظفاره وتجول فى كل المواقع ورأى كل شيئ وأى شيئ دونما استثناء أو خجل أو استحياء ، ورأى وعرف فى طفولته المبكرة مالم يره أو يعرفه آباؤه فى شيخوختهم المتأخرة ، جيل كبرت طموحاته وقصرت إمكانياته ، جيل تعرض لإغراءات بالمتعة والرفاهية والصعود ثم اكتشف أن إمكاناته لا تسمح بشئ من ذلك ، جيل اطلع على أنماط الحياة فى دول العالم المتقدم فرأى الحرية والمساواة والعدل وحقوق المواطنة والرفاهية ووسائل المتعة ثم حين أغلق جهاز الكومبيوتر رأى واقعا تعسا فى بيته ووطنه ، جيل رأى ديموقراطية حقيقية فى أكثر دول العالم بينما وطنه مازال يركع للحاكم الأبدى ويدعو له ولأولاده بدوام البقاء ، جيل رأى الشفافية فى بلاد كثيرة بينما رأى فى بلده كل ألوان الفساد واللف والدوران والألاعيب الثعبانية والثعلبية ، جيل عجز أن تدور أحداث حلمه داخل حدود الوطن فكفر بالوطن وظل ينتظر بلهفة تلك اللحظة التى يعبر فيها الحدود إلى وطن آخر أكثر عدلا وحرية وجمالا وشفافية وديموقراطية وعطاءا ، جيل حاول الهروب من الوطن فغرق على سواحل أوروبا أو تجمد فى جليد غاباتها ، جيل رفض أن يتلوث وعيه بأفكار الآباء الإنهزامية البالية فتمرد على كل شيئ حتى على نفسه ، جيل وجد بعضه معرضا للإنتحار يأسا وكمدا دون أن تمتد إليه يد المساعدة حتى لو أعذر وأنذر واستغاث وهدد ،

جيل يئس من الكبار الذين تربوا على الكذب والنفاق والفهلوة والغش والخداع والرشوة والمحسوبية والذل والهوان وأخلاق العبيد ، جيل يملك الكثير من الإمكانات والمهارات والطموحات ولا يجد لها مكانا فى وطنه ، جيل عجز عن تحقيق حلمه فى زواج من أحبه فتورط فى علاقات ألهبت ضميره فاستبدلها بزواج عرفى عله يشعر ببعض الطمأنينة ، جيل تلقى تعليما فارغا من المضمون ومتخلفا عن العصر وتسلم فى نهاية مشواره المضنى ورقة (شهادة) اكتشف أن ليس لها قيمة فى سوق العمل أو معترك الحياة ، جيل حاول الهروب بالإنغماس فى المخدرات أو سماع الأغانى أو مشاهدة الأفلام على الإنترنت ولكنه حين يفيق يشعر بالإنحدار والهوان أكثر فأكثر ، جيل حاول البحث عن معنى عميق لحياته لدى الدعاة الدينيين فاكتشف أنهم سطحوا فهمه وزيفوا وعيه ودعوه لمزيد من الإستكانة والخضوع لكل كبير واختزلوا قضيته فى لحية وثوب وسواك وبعض الطقوس ، جيل اكتشف أن حكامه ربضوا على أنفاسه سنوات طوال عجاف وخدروا وعيه بوعود تتجدد مع كل دورة حكم وطالبوه بالصبر حتى تؤتى السياسات نتائجها فى المستقبل القريب واكتشف أنه يجرى وراء سراب ، جيل اكتشف أن ثمة تمثيلية تجرى فى وطنه يشارك فيها أشخاص يسمون أنفسهم رؤساء أحزاب وقادة معارضة ورموز فكرية وثقافية والجميع فى النهاية يسعون لمصالح شخصية ضيقة ويتبنون مواقف براجماتية انتهازية ويعملون على ترسيخ وتثبيت الوضع القائم لأجل غير مسمى.

ربما يشكل "محمد بوعزيزى" فى لحظة حرقه لنفسه تجسيدا مكثفا لأزمة هذا الجيل من الشباب العربى ، فهذا الشاب قد حصل على مؤهل عال يفترض أن يؤهله لحياة كريمة فى وظيفة لائقة ، ولكنه لم يجد ذلك وإنما اضطر (كى يعيش) أن يعمل على عربة خضار ، ولنا أن نتصور قدر الهوان الذى يشعر به كل يوم وهو يجر أو يدفع عربة الخضار ليعود بقروش قليلة آخر النهار بالكاد تسد رمقه ، ولنا أن نتصوره وهو جالس مع نفسه يحلم بشريكة حياته التى حلم بها سنوات طويلة ، كيف يتقدم لها ولأهلها بأنه بائع خضار على الرغم من كونه حاصل على مؤهل علمى ، وكيف يتخيل حياة أبنائه ونظرتهم إليه وهو يقضى يومه فى الشارع على هذه العربة .وللعلم فإن الذين وصفوا محمد بوعزيزى من أهله وجيرانه وأصدقائه ذكروا بأنه كان شابا نشطا واعدا مبدعا ومحبا للحياة ، وهذا يجعله أكثر وعيا وألما بما يحدث له . إذا كنا قد استطعنا أن نستوعب الأزمة التى عاشها بوعزيزى حتى هذه المرحلة فإن بإمكاننا أن نقترب من اللحظة الحرجة التى جعلته يفضل الموت حرقا على تلك الحياة (وهى حالة مرشح لها الكثير من الشباب العربى المحبط) ، وذلك حين أتت الشرطة لتخطف منه لقمة عيشه الجافة (ممثلة فى عربة الخضار) وحين يعترض على ذلك (كأبسط حقوقه الإنسانية) تصفعه امرأة "شرطية" على وجهه فتهين كرامته كرجل وتهين كرامته كمواطن وتهين كرامته كإنسان . وربما يكون فى طبقات وعيه إحساس بالهوان والإذلال والغضب من "امرأة" أخرى غير تلك الشرطية ، امرأة هى زوجة الحاكم لبلده وهى تتحكم فى ثروات البلد وتنتزعها من الشعب وتوزعها على أقربائها ، أو يكون فى طبقات وعيه امرأة أخرى يذهب ليتقدم لخطبتها فتنظر له بازدراء على أنه بائع خضار فى الشوارع ، أو امرأة أخرى أحبها وحلم بزواجها ولكنها هجرته نظرا لحاله المتردى . إنه إحساس الهوان والإزدراء ذلك الإحساس الذى يسيطر على كثير من الشباب العربى وهو يرى نفسه "لاشيئ" ولا يعبأ به أحد ولا يهتم به أحد ولا يحترمه أحد . تلك هى اللحظة الفاصلة التى شعر فيها بوعزيزى بمشاعر مركبة ومعقدة منها غضبه الشديد من المرأة التى أهانته وأذلته ومن الحكومة التى أفقرته وسلبته حقوقه وحريته ومن الناس الذين خذلوه ولم يدافعوا عنه فى محنته ، وربما كره نفسه لأنه رضى بالمهانة والذل والخضوع ، ولأنه ضعيف أمام كل هذه القوى المسيطرة عليه فقد توجه بغضبه وعدوانه نحو ذاته فدمرها بأقصى درجات التدمير وهى الحرق ، وكانت صورته وهو منحنى أو راكع تحت وطأة الألم والشعور بالهوان ملهمة ليس فقط للشعب التونسى كى يهب ويطالب بحقوقه ، ولكن للشعوب العربية كلها التى عاشت نفس الظروف بأشكال مختلفة . وتوالت أحداث الانتحار حرقا بين أفراد عديدين فى أكثر من بلد عربى ربما تقليدا لنموذج بوعزيزى الذى نال شهرة إعلامية واسعة وربما رغبة فى أن يتكرر سيناريو التحرر التونسى فى بلاد عربية أخرى تهفو نحو التغيير من سنوات طويلة وربما لإثارة الانتباه نحو معاناة الناس لدى سلطات عربية فقدت القدرة على سماع معاناة الناس مهما ارتفع صوتها ، وربما انتقاما من ذات المنتحر وكراهية واحتقارا لها لأنها رضيت بالذل

والهوان سنوات طوال ، ومن هنا نستطيع القول بأن ظاهرة استشرت فى العالم العربى وهى "حرق الذات" أو "الانتحار الاحتجاجى" أو "البوعزيزية" .

واستنفر المستبدون على طول الوطن العربى وعرضه كلهم يرددون عبارة واحدة "نحن لسنا مثل تونس" ، والجميع يعلم بأنهم "أسوأ من تونس" لأنهم يمارسون القهر السياسى والفساد بطرق ملتوية ، وهنا فقط يصدق قولهم بأنهم ليسوا مثل تونس . وقد فوجئ هؤلاء الذين حاولوا الاستمرار فى الإنكار بموجات الإحتجاج والغضب تجتاح شوارعهم طلبا للخبز والحرية والعدل والمساواة والديموقراطية والكرامة الإنسانية ، حدث هذا فى مصر واليمن والجزائر والأردن والسودان ولبنان . والمراقب للأحداث والتداعيات يدرك بوضوح أننا أمام ثورة شعبية عربية حقيقية لا يحركها تجار السياسة ولا يحركها المنظرون والفلاسفة ، وإنما يحركها ذلك الشباب الذى وصفناه آنفا بكل مزاياه وعيوبه ، وقد نجح فعلا هذا الشباب فى تحريك الشارع العربى بقوة وفعالية بعد أن يئس الجميع من إمكانية قيامه من سباته العميق ، وكان الرأى السائد هو أن الشعوب العربية شعوبا ليست ثورية بطبيعتها ، وأنها شعوبا منقادة قابلة للاستهواء والإستلاب والقهر والإغواء والإحتواء والاستعمار والإستحمار ، فإذا بهذا الشباب يغير هذه النظرة ويفعل شيئا مختلفا . ولقد استخدم أدوات جديدة على الجيل القديم ، تلك الأدوات التى كان يقضى فيها ومعها ساعات طويلة مثل الإنترنت والموبايل ، هاهو الآن يستخدمها للحشد والتنظيم ، وينشئ بها غرف عمليات ، ويدير بها المظاهرات والاعتصامات بشكل حيّر المراقبين وأدهشهم .

وشعور الهوان لدى الشباب العربى ليس فقط من العوامل والظروف الداخلية وإنما من القهر الخارجى الذى يعانيه حين تتعامل إسرائيل وأمريكا مع بلاده وغيرها من البلاد العربية بقدر هائل من الاستعلاء والاحتقار والإذلال ، وحين يحاول أن يأخذ موقفا تجاه كل هذا يفاجأ بموانع وعقبات داخلية ، ويفاجأ باستسلام وتسليم أولى الأمر ، ويفاجأ بضياع الحقوق العربية وامتهان الكرامة العربية واحتلال الأراضى العربية وسلب الإرادة العربية واحتقار الذات العربية .

وإذا حاولنا قراءة الشعارات المرفوعة فى المظاهرات الأخيرة فى تونس ومصر والجزائر واليمن والأردن ولبنان وغيرها فهى تتركز حول لقمة العيش والبطالة ورفض الاستبداد والمناداة بالحرية والعدل والمساواة ورفض التمديد والتوريث ، ووراء كل هذا تجد محورا هاما وهو الشعور بالهوان ، ذلك الشعور الذى أصبح يسيطر على المواطن العربى ويوخز وعيه ، ويزداد ذلك الوخز كلما ازدادت مساحة الوعى، ومساحة الوعى تزداد كل يوم خاصة مع الوسائط الإعلامية الحديثة والمتعددة .

والصورة الآن هى كالتالى : أنظمة حكم عربية شاخت على كراسيها وتجاوزها الزمن منذ سنوات بعيدة وهى مصرة على التشبث بكراسيها بأى ثمن وبأية طريقة حتى لو تفتتت أو ضاعت أو احترقت الأوطان ، وحتى حين تشعر باستحالة أن تعيش للأبد تسعى لتوريث السلطة للأبناء ، وفى حالات الخطر نراهم يركبون طائراتهم ويحملون أموالهم ويتركون الوطن يحترق بأهله ويعيشون فى رفاهية فى البلد الذى يقبل إقامتهم ، وفى المقابل نرى شبابا تفتحت عينه على عوالم وتقنيات حديثة وأفكارةجديدة لا تفهمه تلك الأنظمة ولا تتواصل معه ولا تضعه فى الإعتبار ، وهذا الجيل ليس قابلا للخداع أو للإحتواء أو للاستهواء كما كان الحال مع جيل الآباء والأجداد ، فهو أكثر وعيا وأكثر اطلاعا على الثقافات وأكثر تواصلا مع العالم الخارجى المتقدم ، وأكثر تمردا ، وأكثر معاناة ، وأكثر طموحا وأقل إمكانيات وفرص . ومن هذا الفارق فى التوقيت نفهم ثورة الشارع العربى على أيدى هذا الجيل الشاب المختلف الذى لم يفهمه زين العابدين بن على (على الرغم من ادعائه بالفهم بعد فوات الأوان) ولا يفهمه بقية الحكام العرب الذين ظنوا أن بإمكانهم إيقاف عجلة الزمن أو على الأقل ضبط إيقاعه على إيقاع قلوبهم وأفكارهم البطيئة بحكم الشيخوخة .

والمشكلة لا تنحصر فقط فى فارق التوقيت وفارق السرعة وفارق الإيقاع بين هذا الجيل الجديد والجيل الذى يحكم ويتحكم ، وإنما تتمثل - كما ذكرنا - فى شعور عام بالهوان لدى المواطن العربى شابا كان أو مسنا ، فالجميع يشعر بالتهميش والإستبعاد على المستوى السياسى ، حيث لا انتخابات ولا مظاهر حياة ديموقراطية فى بعض الدول ، أو انتخابات مزورة وديموقراطية شكلية خادعة فى دول أخرى ، والنتيجة النهائية حالة من الاستبداد المتواصل

بلا نهاية ينتج عنها حالة من الفساد تجعل السلطة والثروة فى أيدى حفنة قليلة من المنتفعين الإنتهازيين بينما غالبية الشعب يعيش على بقاياهم ويفتقد الحياة الكريمة.

وثمة تصرفات كثيرة ترسخ حالة الهوان لدى المواطن العربى ، ربما نكتفى بذكر بعضها فى الحالة المصرية كمثال ، فعلى الرغم من كثرة المعاناة فى الحياة اليومية المصرية، ومحاولة الشكوى والاحتجاج، والنوم على الأرصفة لأيام وأسابيع أمام مجلس الشعب ومجلس الوزراء ومجلس الشورى إلا أن الإستجابة لهؤلاء الشاكين والمتوسلين والمتسولين تكون إما منعدمة وإما ضعيفة للغاية، والسمة السائدة هى التجاهل وصم الآذان وإغلاق الأعين والأفهام من المسئولين . وتستمر المعاناة فى التعليم وفى الصحة وفى الشوارع وفى المصالح الحكومية وفى أقسام الشرطة والمحاكم وفى كل مكان دون وجود علامات تغيير حقيقى وكل ما يراه أو يسمعه الناس هو بيانات حكومية متكررة تؤكد أن معدلات النمو الاقتصادى فى ارتفاع ، ثم يكتشف أنها ارتفعت فعلا ولكن على شاشات الكمبيوتر أو لدى الطبقات الأكثر غنى بينما يزداد هو فقرا وحاجة كل يوم ، ويخرج منظرو الحزب الوطنى كل يوم يتحدثون عن إنجازات عملاقة ويعدون المواطن أنه يحتاج لبعض الوقت كى يشعر بتلك الإنجازات ، وأن المشوار مازال طويلا على طريق التنمية وعليه بالصبر ، وكأنه لم يصبر عليهم ثلاثين سنة مضت بلا نتيجة اللهم إلا زيادة المعاناة . ويحلم الناس بتغيير الوجوه والسياسات عن طريق صندوق الإنتخابات ، ولكن يفجأ الجميع بتزوير انتخابات المجالس المحلية ومجلس الشورى ومجلس الشعب ، فتزداد حالة اليأس ويزداد الغضب ويتراكم خاصة مع خروج أقطاب الحزب الوطنى يتباهون بانتصارهم العظيم وسحقهم للمعارضة وإزالتها من الوجود (فى انتخابات يرونها رائعة وحرة ونزيهة) وكأن المعارضة مرض أو فيروس ضار نفخر بإزالته من الحياة السياسية . وحين تنغلق فرصة التغيير عن طريق صندوق الانتخابات لا يبقى إلا التغيير بالاحتجاجات والمظاهرات والضغط الشعبى، وهذا ما حدث فى ٢٥ يناير ٢٠١٠ م ومازال مستمرا . وحين حدث ماحدث لم ينتبه المسئولون فى هذا البلد ولم يفيقوا، ولم يتفهموا ثورة هذا الجيل الجديد المختلف ، وتعاملوا باستخفاف واستعلاء مع الحدث (وتكررت نفس العبارات التى ذكرت فى تونس من أنهم قلة مندسة أو مجموعة تحاول أن تركب الموجة وتهدد الاستقرار) ، ومرت أيام والشوارع مشتعلة فى أكثر من مدينة مصرية وسقط ضحايا أعزاء من أبناء مصر من الشباب الثائرين ومن الضباط والجنود ، ولم يخرج علينا أحد من كبار المسئولين يطيب الخواطر أو يدعو للهدوء وضبط النفس أو يعد بتلبية بعض المطالب المشروعة (وكلها مشروعة ) ، وإنما هى حالة التجاهل والإستعلاء وحالة الإحتقار للشعب وكأنه لا يستحق أن يخرج عليه مسئول كبير يخاطبه أو يخطب فيه أو يحاوره أو يهدئ من روعه ، وإنما تنحصر الاستجابة فى تصدير قوات الأمن المركزى تفرق المتظاهرين بالقنابل المسيلة للدموع أو بخراطيم المياه الجبارة أو بالرصاص المطاطى والحى ليموت من يموت ويصاب من يصاب ويشتبك رجال الشرطة (المصريون) مع المتظاهرين الجوعى والمحبطين والمقهورين والغاضبين (المصريين) ، بينما يجلس الكبار متعالين مترفعين فى أبراجهم العالية ، وهذا يرسخ الشعور بمزيد من الهوان الذى هو مستقر فى النفس منذ سنوات ويكمن وراء ما يحدث وما سوف يحدث . وللأسف الشديد كان التعامل الأمنى هو الأسلوب المتبع فى كل الحالات على مدى العقود الثلاثة الماضية ، حيث يوكل للأمن التعامل مع الناس مع غياب الحلول السياسية وغياب الحوار بين السلطة والمجتمع ، وغياب القدرة على الإنصات لصوت الشارع مباشرة ، وقد ألقى هذا أعباءا شديدة على الجهاز الأمنى وورطه فى مواجهات مع الناس أثرت على إدراك رجل الشارع لذلك الجهاز المهم ، وربما نفهم ذلك من اختيار القائمين على المظاهرات ليوم عيد الشرطة ليكون موعدا للاحتجاج.

والسؤال الآن: ماهى التوقعات لتلك الحالة الثورية التى أصابت الشارع العربى ، وامتدت من تونس إلى الجزائر إلى مصر إلى الأردن واليمن ولبنان والسودان؟

غالبا ستمتد تلك الحالة وتحدث تغيرات جذرية وتغير التوقعات التقليدية من الشارع العربى، وذلك لأن القائمين بها جيل مختلف شعر بالهوان ولم تعد ترضيه وعود ببعض الوظائف أو زيادة المرتبات فالأمر تجاوز ذلك بكثير، ومازالت الأنظمة العربية تعيش حالة من الإنكار وضعف الرؤية وضعف السمع واضطراب الإدراك لما يجرى فى الشارع على أيدى هذا الجيل الجديد المختلف.